احذروا الإسراف في الدعاية

لحضرة صاحب المعالى عبد السلام الشاذلى باشا

وزير الأوقاف

المطالبة للفلاح والعامل بنوع من الحياة يتوافر لها فيه صحة البدن والطعام المغذى واللباس المناسب للفصول والمسكن النظيف وقسط نسبى من العلم والأمن من الجوع عند العطلة والشيخوخة ، هذه المطالبة حق وفضل وواجب ، وفيها البر بالفلاح والانصاف للعامل .

وفى ميدان الدعوة الى هـذا البر والإنصاف تسابق الدعاة وتنافست الأقلام وانطلقت الألسنة بالقول البليغ الذى يثير العطف و يحفز الهمم .

واهتمام الحكومة بإنصاف العـامل والفلاح وتحسين حالها اهتمام واضح ملحوظ ، فهى لاتفتأ تحارب الفقر والجهل والمرض، وتجرد لهذه الحرب ما استطاعت من قوة ، وتخصص مئات الألوف من المـال لإنشاء مراكز اجتماعية فى مختلف نواحى البلاد و إقامة ما يصون الأبدان والعقول من مستشفيات ومصحات وملاجئ ومدارس .

ولكثير من الجمعيات والهيئات جهود متواصلة فى هـذا الميدان تؤيد جهود الحكومة وتكملها . والطريق بعد هـذا وذاك طويل لا نستطيع اجتيازه الا بعد وقت طويل . فما علينا الا الاستمرار والصبر والمضى فى الكفاح والدأب على الاصلاح ، ونحن واصلون باذن الله الى ما نريد من خير لفلاحنا وعاملنا ولكياننا المصرى كله . و إذا كان استئصال الفقر والجهل والمرض أمرا مستحيلا فاسنا نطمع فى تحقيق المستحيل ، ولكنا واثقون أننـا بصحة العزم وصدق الارادة سندرك النصيب الأكبر مما نريد .

ذلك أن العلة التى نعالجها ليست علة عشرات من الناس أو مئات ، ولا هى بنت شهر أو بنت عام ، و إنـما هى علة ملايين وملايين من المصريين هم العاملون وهم المنتجون وهم المنجبون . ولقد أزمنت هذه العلة وتفاقمت على مر الأجيال ، فمهما يكن القائم بالاصلاح مخلصا نشطا سخيا بالجهد والمـال فهو لن يستطيع فى المدى القصير أن يأتى بخلق جديد .

ودعوتنا الى الاصلاح ليست ثورة نجمت فى الرءوس أو نزوة ارتجلت فطفت فقامت تدمر تدميرا سريعا وتبنى بناء سريعا . و إنما هى شعور خير أملاه الانصاف وأوحت به اليقظة والنظر الحكيم فى أحوال الأمم ونهضاتها . وما دام هـذا هو الباعث على العمل للاصلاح فلا

يكون العمل إلا تفكيرا وزينا ، وتنفيذا حكيما ، وخطوا مرتبا بريئا من الطفرات الطائشة ومن استعجال الأمانى قبل أوانها ومن التطلع الى ما لم ترشحنا له كفاياتنا وقوانا وأسلحتنا بعد .

فليكن هـذا فى بال بعض دعاة الإصلاح الذين يخرجهم فرط الاخلاص لقضية العامل والفلاح عن دائرة الحـذر والاحتياط وحسن وزن الأمور كلما أرادوا عرض القضية التى نصبوا أنفسهم للدفاع عنها .

واذا كان أئمة الدين قد أوصوا بمراعاة أحوال الزمان والمكان فى تطبيق أحكام القرآن ، فهل لا يجمل بأولئـك الدعاة أن يراعوا هم أيضا أحوال الزمان والمكان فى نشر دعايتهم وبث آرائهم بين بيئات الفلاحين والعمال ؟ وإلا فما للحماسة تدفعهم الى المبالغة والتهويل وإبراز الفلاح والعامل فى صورة أشباه الانسان بل فى صـورة الحيوان المهمل الشريد الذى لا ينال طعامه إلا بالتقاط الفتات وجمع الفضلات ، ولا يكتسى إلا بالأسمال والأطمار ، ولا ينام إلا على مثل مرابط الدواب والأنعام ، ولا يعلم من شؤون الحياة إلا ما تعلمه السوائم فى الفلوات ؟

وأى فائدة يرجوها أولئك الدعاة عند ما يسرفون للعامل والفلاح فى دعايات تتزاحم فيها عبارات الرثاء والاشفاق ، وعند ما يدعون الناس الى مشاركتهم فى الشكوى ممـا وصلت إليه حالة العامل والفلاح ، وعند ما يصورون لهما حياتهما كأنها نكد خالد وبؤس مقيم وجحيم مستمر ؟

أى فائدة يرجونها عند ما يصورون للعامل المصرى والفلاح المصرى حياة أمثالهما فى أوربا وأمريكا ويحضونهما على المطالبة بمثل هذه الحياة ويعدونهما بأن وراء المطالبة سعادة دانية ومتعة دائمة وبسطة فى العيش ووفرة فى الرزق وانتقالا من حال الى حال ؟

ألا إن هؤلاء الدعاة إنما يسيئون الى العامل والفلاح من حيث يريدون أن يحسنوا إليهما : فهم يعلمون أن الطفرة محال ، وأن الحالة المـالية فى البلاد لا تسمح بأكثر مما تعمله الحكومة والهيئات ، وأنهم مهما بالغوا فى الدعوة وبكوا واستبكوا فلن يستطيعوا حمل الأمور على أن تجرى فى غير أعنتها الطبيعية ، ولا حمل الدولة على أن تضحى سائر مصالح الشعب لتعنى بمصلحة طائفة معينة منه . فلا يبقى بعد هذا من أثر لتلك الحملات والدعايات إلا أنها تفقد كلا من العامل والفلاح قناعته وطمأنينته وتفسد عليه معنى ما يفهمه من السعادة والهناء ولا تعوضه عن هذا الفقدان شيئا يساويهما .

ويا ويل العامل أو الفلاح عند ما تعمل هذه الدعايات فى نفسه عملها المخرب ، وتقبح نوع حياته أمام ناظريه ، وتنتزع الهدوء والسكينة من فؤاده ، وترسم له الأمانى والخيالات حقائق قريبة المنال ، ثم يفتح عينيه بعد طول التململ وطول الأمل فاذا بينـه وبين مراده

أمد طويل وشقة هائلة . فلشد ماينتابه عندئذ قلق سرعان مايستحيل تذمرا ثم احتجاجا ثم تمردا لا يدرى أحد ما ذا تكون عقباه .

فهل هذه هى الغاية التى يريد أن يصل إليها غلاة الدعاة الى إصلاح حال العمال والفلاحين أم هم يبتغون مجرد تنغيص عيش هاتين الطبقتين من الناس وإفساد ذلك الهناء النسبى الذى تعيشان فيه ؟

إن ما يرسمونه للفلاح أو العامل من صور شقائه وما يخيلونه له من سعادات أمثاله فى البلاد الأخرى إنما يثير فى نفسه التأفف والحسد والطمع ، وإن ما يمنونه به من نعم عاجلة وخيرات آزفة إنما يجعله يرتقب هذه النعم والخيرات أوسع مايكون أملا وأشد مايكون لهفة وتشوقا ، ثم يجرى الاصلاح على ما يجب له من تدرج وطول انتظار فيخيب أمله وتثور نفسه وتفتر همته وتخسر الدولة والأمة نشاطه وتستهدفان بعد ذلك الى كل ما يترتب على غليان النفوس وانفجار الأعصاب .

اتئدوا إذن أيها الدعاة المغالون ، اتئدوا فيما جركم إليه حب التقليد أو دفعكم إليه فرط الاخلاص والاشفاق ، فهو لن ينتج للفلاح ولا للعامل إلا السخط على حاله وهو بها اليوم قانع ، أو الطمع فى عظائم الأمور وما هو عليها بقادر ، وستتركونه فى حيرة من أمره وفى تبرم بحياته ، وهو آخر الأمر غير راض بما هو عليه وغير بالغ ما تطمعونه فيه .

لست بذلك أحاول أن أحط من قيمة قضية الفلاح والعامل ، ولا أن أعترض سبيل المجاهدين فى إنجاح هذه القضية العادلة ، وإنما أريد أن أمحض النصح للدعاة الاجتماعيين فأقول لهم إن الخير كل الخير إنما هو فى أن تجعلوا للحقائق الواقعة والحالات القائمة نصيبا من تفكيركم ، وفى أن تقيسوا ما ترغبون فيه بما تقدرون عليه ، فاقصروا دعوتكم على الجهات التى تتوسمون فيها القدرة على إجابتها ، ولا تشيعوا التذمر والقلق والتململ فى النفوس فما فى ذلك مصلحة لأحد ولا فائدة للبلاد ما

عبد السلام الشاذلى